

مجتمعات العصور الوسطى

إنَّ دارس التاريخ يلاحظ أنَّ عالم العصور الوسطى قد اشتمل على ثلاثة مجتمعات كبيرة - حسب ظهورها التاريخي- هي : المجتمع البيزنطي الذي ورث الجانب الشرقي من أملاك الإمبراطورية الرومانية، والمجتمع الأوربي الذي عاش على أراضي الجانب الغربي للإمبراطورية الرومانية، والمجتمع الإسلامي الذي بدأ من شبه جزيرة العرب، ثم ما لبث أن احتوى أملاك الدولة الفارسية وجانباً كبيراً من أملاك الإمبراطورية الرومانية هو الشام وآسيا الصغرى والشمال الإفريقي من مصر حتى المحيط الأطلسي وأسبانيا، وغير ذلك في آسيا وأفريقيا.

والمجتمع الأول وهو البيزنطي قد اتخذ من الديانة المسيحية ديناً له شأنه في ذلك شأن المجتمع الأوربي، ولكنه اختلف عن المجتمع الأوربي في اتخاذ المذهب الأرثوذكسي مذهباً مسيحياً رسمياً لدولته. وقد اتخذ هذا المجتمع من مدينة القسطنطينية عاصمة له ليحكم الأراضي التابعة له التي تضمنت شعوباً مختلفة، منها ما هو آسيوي أو إغريقي أو سلافي وغير ذلك من الشعوب التي كانت تتحرك في شمال أوروبا وغربي آسيا. والملاحظ هنا أنَّ أملاك الإمبراطورية البيزنطية قد تقلصت مع الزمان، ولكن عاصمتها القسطنطينية ظلت باقية طالما بقيت الإمبراطورية البيزنطية.

أمَّا المجتمع الثاني وهو المجتمع الأوربي فقد اشتمل على العناصر الرومانية بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، هذا بالإضافة إلى العناصر التي وفدت إليه على شكل هجرات أو غزوات وهو ما يعرف في التاريخ بأسم الغزوات الجرمانية. وقد حملت هذه العناصر معها حضارتها التي اختلطت بالحضارة الرومانية، وظهر مجتمع جديد كان في بداية الأمر يعتنق غالبيته الديانة المسيحية على المذهب الأريوسي، ثم ما لبث أن تخلص من الأريوسية واتخذ المذهب الكاثوليكي. وإذا كانت مدينة روما ظلت مركزاً لهذا المجتمع في مطلع العصور الوسطى من الناحية السياسية والروحية فإنَّ هذا المركز قد تلاشى في مراحل لاحقة، واقتصر على السيادة الروحية فقط لتواجد المركز البابوي بها.

وفيما يتعلق بالمجتمع الثالث وهو المجتمع الإسلامي الذي بدأ بظهور الإسلام، فقد أصبح له دولته المتميزة سياسياً وحضارياً لقيامها على مفهوم إسلامي مستمد من شريعتها.

وإن كان هذا المجتمع قد بدأ صغيراً مع الدعوة المحمدية فإنه ما لبث أن انتشر سريعاً، وساد أقاليم شاسعة لما بعثته الدعوة المحمدية في الشعوب المعاصرة.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو المجتمع الأوروبي في غرب أوروبا. وواقع الأمر أن العصور الوسطى ليست عصوراً منفصلة عن العصور القديمة أو العصور الحديثة فهي مرحلة من مراحل التاريخ الطويلة، التي يصعب تحديد بدايتها أو نهايتها بحادثة محددة مثل تولية ملك أو إمبراطور أو معركة عسكرية لها أهميتها. ومن المتفق عليه أن التطور التاريخي يسير في حركة غير ملموسة تكون مدخلاً لعصر آخر له أبعاده السياسية والحضارية التي تميزه عن مرحلة سابقة وأخرى لاحقة.

بداية ونهاية العصور الوسطى

إذا كانت العصور الوسطى تتوسط التاريخ القديم والحديث، وهي فترة امتدت أكثر من عشرة قرون، فليس معنى ذلك أن هذه المرحلة قد سارت على وتيرة واحدة في الجوانب السياسية والحضارية، بل بالعكس فقد اختلفت هذه الجوانب من مرحلة إلى مرحلة ومن منطقة إلى أخرى، بمعنى أن ما ساد العصور الوسطى من نظم قد اختلفت عنه في نهايتها، وما ظهر من حضارة في إيطاليا في فترة ما يختلف عما ظهر من حضارة في انكلترا في الفترة ذاتها، وعلى ذلك يتضح أن لكل مرحلة من مراحل العصور الوسطى خصائصها المتميزة عن غيرها مع شيء من التفاوت.

ولما كان لكل مرحلة من مراحل التاريخ الوسيط ما يميزها عن غيرها، فقد أطلق بعض المؤرخين تسمية العصور الوسطى المظلمة على المرحلة الأولى من العصور الوسطى، لما سادها من حروب وغزوات وهرطقات دينية، ولكن هذا المفهوم قد تغير بعد قيام المؤرخين المحدثين بالبحوث التاريخية عن هذه المرحلة وما تلاها من مراحل، وهي البحوث التي أوضحت الجوانب الإيجابية لفترة العصور الوسطى بأكملها، وأظهرت الجوانب الحضارية التي سادت مجتمع أوروبا في العصور الوسطى، وهي الحضارة التي ارتكزت عليها العصور الحديثة في أوروبا وفي العالم أجمع.

وعلى أية حال فالمدخل الطبيعي لدراسة العصور الوسطى هو تحديد بدايتها ونهايتها، وهو أمر صعب دار حوله جدل كثير واجتهد كل باحث في إيضاح وجهة نظره حول بداية ونهاية العصور الوسطى، وسنعرض في الصفحات التالية أهم الآراء التي حاولت

تحديد بداية ونهاية العصور الوسطى، وقد حاولنا إدماجها في وحدات متجانسة أو رَدّها إلى أسباب متشابهة حتى يتيسر فهمها بسهولة.

أ- بداية العصور الوسطى

*أولاً: آراء تدور حول أعمال بعض الابطارة

يرى البعض اختيار عصر الامبراطور دقلديانوس Dicoletian (٢٨٤ - ٣٠٥ م) ليكون مدخلاً للتأريخ الوسيط، ويرجع ذلك إلى أنَّ الامبراطور دقلديانوس حاول إعادة تنظيم الامبراطورية على أسس إدارية اختلفت كثيراً عن الأنظمة التي سادت الامبراطورية من قبل، كما أنَّه ترك مدينة روما Roma عاصمة الامبراطورية، واستقر في آسيا الصغرى واتخذ من مدينة نيقوميديا Nicomedia مقراً له، هذا بالإضافة إلى موقفه المعادي للديانة المسيحية، وما لاقاه المسيحيون في عصره من اضطهاد حتى عُرف عصره بعصر الشهداء، وأصبح عام ٢٨٤م وهو العام الذي يبدأ به حكمه بداية للتأريخ القبطي في مصر. ولما كانت المسيحية قد أُعتُرف بها بعد نهاية حكم دقلديانوس بفترة قصيرة، ولما كانت المسيحية أيضاً من معالم العصور الوسطى، فمن هنا كانت وجهة نظر هؤلاء المؤرخين تبدو مقبولة ومعقولة أيضاً.

ويتخذ البعض عصر الامبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٥ - ٣٣٧ م) مدخلاً للعصور الوسطى، لأنَّ قسطنطين الأول تمكَّن من القضاء على الحرب الأهلية داخل الامبراطورية وأصبح حاكماً لا منافس له، كما صاحب عهده تغيرات جذرية في مجالات متعددة، ومن هذه التغيرات الاعتراف بالديانة المسيحية في الدولة إلى جانب الوثنية، عندما أصدر مرسوم ميلان Edict of Milan عام ٣١٣م. هذا بالإضافة إلى بناء مدينة القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية. ثم إصلاحاته المتعددة في الجوانب التشريعية والعسكرية والإدارية.

وتشير مجموعة أخرى من المؤرخين إلى الامبراطور جستينيان الأول Justinian I (٥٢٧ - ٥٦٥ م)، على اعتبار أن عهده يفصل بين القديم والوسيط ويعلون وجهة نظرهم بالأعمال الكبيرة التي قام بها هذا الامبراطور في الداخل والخارج، ومن ذلك ما قدمه لنا من تشريعات ظلت باقية لفترة طويلة من الزمن، وما صاحب عصره من حركة معمارية ظل بعضها إلى يومنا هذا، هذا بالإضافة إلى ما قام به من محاولات عسكرية لإعادة أراضي الامبراطورية وبخاصة في استرداد شمال إفريقيا من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين،

وجانباً من إسبانيا من يد القوط الغربيين. ولما كانت محاولته هذه تُعدُّ آخر محاولة قام بها إمبراطور روماني، فإنَّ ما حدث يُعدُّ نهاية لمجد الامبراطورية الرومانية لأنَّ خلفائه من بعده فشلوا في الحفاظ على هذه الأراضي، وعلى ذلك يُعدُّ عصره مرحلة جديدة تنقلنا إلى عصر جديد هو عصر التاريخ الوسيط.

ثانياً: أسباب دينية

سبق أن أوضحنا أنَّ البعض اختار عصر قسطنطين الأول ليكون مدخلاً للتاريخ الوسيط، نظراً لما قام به هذا الإمبراطور في مجالات متعددة، وفريق من المؤرخين يرون في عام ٣١٣م بداية للتاريخ الأوروبي الوسيط بسبب صدور مرسوم ميلان في هذا العام، نظراً لما أبداه هذا المرسوم من تسامح تجاه المسيحيين وجعل الديانة المسيحية ديانة معلنة بعد ما كانت سرية. وفريق آخر من المؤرخين يرى أنَّ هذا التسامح لم يدم، فقد أُصيب بنكسة في عهد الإمبراطور جولييان المرتد Julian the Apostate (٣٦١-٣٦٣م) الذي ارتد من المسيحية إلى الوثنية وجعل الأخيرة ديناً رسمياً للدولة. ولكن هذه المحاولة قد فشلت تماماً وانتصرت المسيحية. ومن هنا يُعدُّ هؤلاء المؤرخون عصر جولييان المرتد بداية للعصور الوسطى لأنَّ عصره كان آخر عصور الوثنية وأول عصور المسيحية التي هي إحدى دعائم العصور الوسطى.

ومن الفريق الذي ينظر إلى الجانب الديني على أنَّه بداية للعصور الوسطى، يتخذ البعض المرحلة التي تحولت فيها بعض العناصر الجرمانية وهم القوط Goth من الوثنية إلى المسيحية وإن كانت على المذهب الأريوسي، ويضعون عام ٣٧٦م بداية لهذا التحول، وهو العام الذي بدأ فيه المبشر أولفيلاس Olfilas (٣١٠-٣٨٣م) التبشير في القوط، وما لبثت عناصر أخرى أن اعتنقت هذا المذهب، وتحركت مع القوط لأسباب متعددة ودخلت إلى أراضي الامبراطورية وأقاموا دولاً كانت علامة بارزة في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

وفي ختام تلك النواحي الدينية نقول إنَّ بعض المؤرخين يضعون حكم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٨-٣٩٥م) نقطة البداية للتاريخ الوسيط، ويحددون سنة ٣٧٨م لتكون نهاية للتاريخ القديم وبداية الوسيط. ومرجع ذلك أنَّ هذا الإمبراطور قرر في هذا العام القضاء على العناصر الوثنية وعلى اتباع المذهب الأريوسي. وقد تجلَّى ذلك في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م الذي أقرَّ نهائياً عدم شرعية المذهب الأريوسي وفرض

العقوبات على إتباعه. كما وقف في وجه الوثنيين، وأقفل مراكز عبادتهم، وأصدر التعليمات الكفيلة بعدم مباشرتهم طقوسهم، وحرق ما هو مُدَوّن من تعاليمهم.

ثالثاً: أسباب عسكرية

وترى مجموعة من المؤرخين أنَّ معركة أدرنه Adrianpole التي دارت رحاها في شهر آب/اغسطس عام ٣٧٨م تصلح لتكون نهاية للتأريخ القديم وبداية للتأريخ الوسيط. ويعللون وجهة نظرهم بأنَّ القوط الغربيين بعدما عبروا نهر الدانوب Danuvius استقروا في مواسيا Moesia وتراقيا Threce، قد ضاقوا بهذه المناطق ودخلوا في صراع مع الامبراطورية وحاربوها وانتصروا عليها في معركة أدرنه، وهي المعركة التي قتل فيها الامبراطور فالنر Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) وهزمت جيوش الامبراطورية هزيمة ساحقة. وكان لهذه المعركة والنتائج المترتبة عليها أثراً كبيراً في تأريخ الامبراطورية حتى أنَّ بعض المؤرخين شبهوها بمعركة كاناي Canay التي وقعت في عام ٢١٦م بين الامبراطورية الرومانية وهانيبال، وقُتل فيها ما يقرب من خمسين ألف، وأُسِر حوالي ثلاثة آلاف من قوات الامبراطورية.

رابعاً: نظم إدارية

يرى فريق من المؤرخين أنَّ عام ٣٩٥م وهو العام التي توفي فيه الامبراطور ثيودوسيوس الأول نهاية للتأريخ القديم ومطلع التأريخ الأوربي الوسيط. وتستند أفكارهم إلى أنَّه في هذه السنة قُسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين بين أبناء ثيودوسيوس الأول، تولى القسم الشرقي منها ابنه أركاديوس Arcadius (٣٩٥ - ٤٠٨م) وابنه الآخر هونوريوس Honorius (٣٩٥ - ٤٢٣م) القسم الغربي وعاصمتها روما، وبذلك أصبح كل قسم دولة قائمة بذاتها، وبمعنى آخر أنَّ ذلك كان بداية لدولة في الشرق عُرفت باسم الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية استمرت حتى عام ١٤٥٣م، وقيام دولة في الغرب عاصمتها روما لم تلبث أن تعرّضت لغزوات العناصر الجرمانية التي أقامت على أرضها دولاً وممالك كانت من معالم تأريخ أوربا في العصور الوسطى.

خامساً: أفكار تتعلق بمدينة روما

تدور آراء بعض المؤرخين حول مدينة روما، وما كان لها من عظمة ومجد بوصفها عاصمة الامبراطورية الرومانية منذ قيامها، هذا بالإضافة إلى كونها مقر الكرسي الرسولي بعد قيام القديس بطرس Peatry بتأسيس كنيسة فيها. وكان سقوط هذه المدينة الخالدة في أيدي

عناصر غير رومانية إيداناً بنهاية التأريخ القديم وبداية التأريخ الوسيط. ويرى الفريق المؤيد لهذا الرأي في عام ٤١٠م تحديداً لذلك، لأنَّ القوط الغربيين بقيادة الأريك Alaric قد تمكنوا في هذا العام من غزو إيطاليا، والزحف على روما واقتحامها في الوقت الذي لجأ فيه الامبراطور الغربي هونوريوس إلى رافنا Ravenna واتخذ منها عاصمة له بعد روما.

سادساً: آراء تتعلق بمنصب الامبراطور الغربي

يرى العديد من المؤرخين في عام ٤٧٦م نهاية تأريخ الامبراطورية الرومانية وبداية تأريخ العصور الوسطى، لأنَّها السنة التي تمكَّن فيها أوداكر Odoacer زعيم الهرول Herules - إحدى العناصر الجرمانية - من دخول مدينة رافنا، وعزل الامبراطور الغربي رومولس أوغسطولس Romulus Augustulus (٤٧٥-٤٧٦م) الذي كان في الثانية عشر من عمره، ونفيه إلى جنوب إيطاليا مع تخصيص معاش مناسب له.

وإذا كان البعض يضع عام ٤٧٦م نهاية للتأريخ الروماني، وذلك لانتهاء حكم الأباطرة الرومان للقسم الغربي للامبراطورية الرومانية، فإنَّ البعض يضع على المعيار نفسه عام ٨٠٠م بداية للتأريخ الوسيط على اعتبار أنَّه في هذا العام تُوج شارلمان Charlemagne (٧٦٨-٨١٤م) امبراطوراً في الغرب الأوربي، وتمَّ إحياء الامبراطورية تحت اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد ما خلا الغرب من شخص يحمل لقب الامبراطور طوال الفترة الممتدة من ٤٧٦-٨٠٠م.

بعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول سقوط الامبراطورية الرومانية وبداية التأريخ الأوربي الوسيط ولكل منها ما يؤيدها، يمكن القول أنَّ هناك عوامل متداخلة أثَّرت بشكل أو بآخر في تحوُّل المجتمع الأوربي إلى التأريخ الوسيط، وإنَّ هذه العوامل سارت بدرجة غير ملموسة حتى شكَّلت التأريخ الوسيط.

ب- نهاية العصور الوسطى:

مثلما ظهرت الآراء حول بداية العصور الوسطى فقد تعددت الأفكار حول نهاية العصور الوسطى. وإذا كان ما حدث في القرن الخامس الميلادي من تغييرات على المجتمع الروماني هو الذي دفعنا إلى تغيير اسم هذا المجتمع إلى مجتمع العصور الوسطى، فإنَّه لا بُدَّ أن تحدث تغييرات في المجتمع الوسيط تجعلنا ننهي بهذه التغييرات المجتمع الوسيط إلى مجتمع آخر وهو ما نطلق عليه مجتمع العصر الحديث. ومع هذه التغييرات ظهرت بعض

الآراء لوضع نهاية التأريخ الأوربي الوسيط، وقد حاولنا إدماجها في عناصر متشابهة حتى تصبح واضحة المعالم.

أولاً: آراء تدور حول الجوانب العسكرية

يرى بعض المؤرخين إنتهاء حقبة العصور الوسطى بعام ١٤٥٣م، ويعللون وجهة نظرهم بحادثتين وقعتا في تلك السنة كان لهما أثرهما البالغ الأهمية في الشرق والغرب الأوربي، ففي الشرق أصبحت القسطنطينية تحت نفوذ العثمانيين بعدما ضيقوا الحصار عليها بعد بناء قلعة أناضولي حصار عام ١٣٩٧م على الشاطئ الآسيوي على مسافة ستة أميال شمالي العاصمة، ثم قلعة روملي حصار لتقابلها على الشاطئ الأوربي عام ١٤٥٢م. ومع السيطرة على هذه المدينة يأفل نجم مجتمع الامبراطورية البيزنطية أي نصف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، وينفذ الأتراك إلى أوربا حاملين معهم أفكاراً جديدة قضت على أنظمة الامبراطورية البيزنطية، ومهدت لقيام أنظمة أخرى ساهمت في قيام العصر الحديث.

أمّا فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت في العام نفسه (١٤٥٣م) في الجانب الغربي من أوربا، ففي هذا العام تنتهي حرب المائة عام التي دارت رحاها بين انكلترا وفرنسا، وانتصار الأخيرة بعد سقوط مدينة بايو Bayonne ومدينة بودرو Bordeaux على التوالي. ولعل اتخاذ بعض المؤرخين لهذه الأحداث علامة على نهاية العصور الوسطى مرجعه إلى ما ترتب عليها من نتائج شملت الجوانب القومية والفكرية والاقتصادية والمعمارية في انكلترا وفرنسا، ثم انعكست على بقية الغرب الأوربي.

ثانياً: - آراء حول عصر النهضة

يضع بعض المؤرخين عصر النهضة فاصلاً بين التأريخ الوسيط والحديث، ومرجع ذلك إلى أنّ عصر النهضة اشتمل على تطورات واسعة في كافة المجالات، ففي مجال اللغة كانت اللغة اللاتينية هي لغة الكتابة في أوربا أبان العصور الوسطى، وهذا يعني أنّ طائفة معينة هي التي كانت تطلع على ما كُتب في هذه المرحلة، ولكنّ تحولاً كبيراً طرأ على هذا الجانب عندما كتب دانتي الليجيري Dante Alighieri (١٢٦٥-١٣٢١م) - وهو الشاعر الفلورنسي الذي عُدّ كبير شعراء عصره - كتب باللغة الإيطالية بدلاً من اللاتينية، ولعل أعظم ما كتبه هو الكوميديا الإلهية Divine Comedy التي صاغها شعراً. وفي هذا المجال تجدر بنا الإشارة إلى الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧م) صاحب "رسالة

الغفران" ولما لهذه الرسالة من أثر على كتابات دانتي. وإذا كان دانتي قد برز في إيطاليا فإنَّ الشاعر الإنكليزي جيوفري تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٣-١٤٠٠م) يُعدُّ أبرز الشعراء الإنكليز قبل وليم شكسبير William Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦م). وقد قدّم تشوسر لمعاصريه عدة مؤلفات ختمها بكتابه الذي لم يتم وهو قصص كانتربوري The Caunterbury Tales. وكان لاستعمال هذا الشاعر اللغة الإنكليزية في الكتابة أثراً كبيراً على معاصريه. وفي فرنسا يبرز لنا الشاعر الفرنسي فرانسوا فيلون Francols Villon (١٤٣١-١٤٩١م) الذي استعمل اللغة الفرنسية في الكتابة بمنهج ساخر. ومما لاشك فيه أنَّ التحوّل إلى الكتابة باللغة المحلية، وهي اللغة التي يستطيع الكثير استعمالها بدلاً من اللاتينية التي احتكر معرفتها القليل كان له أبلغ الأثر، وأعطى الفرصة للعديد للاطلاع على آراء المفكرين في هذه المرحلة.

وفيما يتعلق بالفنون نذكر الرسام الإيطالي سيمون مارتييني Simon Martine (١٢٨٤-١٣٤٤م) الذي تميزت أعماله بالرشاقة، ومن بعده رفائيلو سانزو Raffaello Sanzio (١٤٨٣-١٥٢٠م) الرسام المهندس والمعماري الإيطالي الذي كان أعظم الفنانين العالميين في مختلف العصور، ونكتفي في هذه المرحلة بذكر ثالث وهو مايكل أنجلو Michel Angelo (١٤٧٥-١٥٦٤م) وهو النحات والرسام والمهندس المعماري. وواقع الحال أنَّ هؤلاء الفنانين وغيرهم قد خرجوا على تقاليد العصور الوسطى وخاصة كنيسة، وقدموا أعمالاً فنية في غاية الروعة والجرأة، وتركوا لنا فناً مختلفاً تماماً عن فنون العصور الوسطى.

ثالثاً:- آراء مرتبطة بالجانب الديني

لما كانت الكنيسة وما فرضته من تعاليم وسيطرة على أوروبا من أهم معالم العصور الوسطى، لذلك كان الخروج على الكنيسة وأفكارها التي سادت مجتمع العصور الوسطى يُعدُّ نقلة من مرحلة إلى مرحلة أخرى، لذلك يرى البعض أنَّ حركة الإصلاح الديني التي بدأت بمهاجمة رجال الدين لبعدهم عن مُثل المسيحية وبساطتها نهاية للعصور الوسطى. ومهما كان موقف البابوية من أمثال من نادوا بذلك، فمما لاشك فيه أنَّ مركز البابوية قد تأثر كثيراً منذ القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة الأسر البابوي (١٣٠٥-١٣٧٧م) والانشقاق الديني الأكبر (١٣٧٨-١٤١٧م). ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أثنين من الذين نادوا بالإصلاح الديني

في هذه المرحلة هما جون هس John Huss (١٣٧٢-١٤١٥ م) المصلح الديني الجيكي الذي أُتهم بالهرطقة وأعدّم حرقاً، جون ويكلف John Wycliffe (١٣٣٠-١٣٨٤ م) المصلح الديني الإنكليزي الذي أنكر سلطة البابا إذا تعارضت مع تعاليم الكتاب المقدس، لذلك أُتهم بالهرطقة. ولا شك أنّ هذين المصلحين قد مهدا لدعوة مارتن لوثير Martin Luther (١٤٨٣-١٥٤٦ م) الراهب الألماني الذي تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا، ومن بعده هيولاتيمر Hugh Latimer (١٤٨٥-١٥٥٥ م) المصلح البروتستانتي الإنكليزي الذي حُكم عليه بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة. ونخلص من ذلك إلى أنّ حركة الإصلاح الديني امتدت حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي، وأنّ الحكم بالموت حرقاً في هذه المرحلة يشير إلى أنّ أفكار العصور الوسطى كانت سائدة حتى في هذه المرحلة أيضاً.

رابعاً: - أفكار تدور مع الكشوف الجغرافية

مما هو معروف أنّ الكشوف الجغرافية وما ترتب عليها من نتائج في كافة المجالات كان لها أثرها البالغ على مجتمعات العصور الوسطى في العالم أجمع، هذه الكشوف الجغرافية التي قام بجانب منها الملاح البرتغالي بارثولوميو دياز Bartholomew Diaz (١٤٥٠-١٥٠٠ م) واكتشف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ م، ومن بعده فاسكو دي جاما Vasco de Gama (١٤٦٩-١٥٢٤ م) الذي قام بأول رحلة بحرية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، وفيرناندو ماجلان Fernando Magellan (١٤٨٠-١٥٢١ م) الملاح البرتغالي الذي عدّوه أول من قام برحلة حول العالم. وفي مجال الكشوف الجغرافية يلمع كريستوفر كولمبوس Christophorus Columbus (١٤٥١-١٥٠٦ م) الذي اكتشف أمريكا الجنوبية دون أن يدري عام ١٤٩٢ م. ويتخذ أصحاب هذا الرأي هذا العام منطلقاً لعصر جديد ونهاية للعصور الوسطى، لما ترتب على هذه الكشوف من نتائج في المجالات السياسية والاقتصادية بصفة خاصة، وفي المجالات الفكرية بصفة عامة.

وعلى أية حال، وبعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول نهاية العصور الوسطى نكرر أنّ التحوّل من مرحلة التأريخ الوسيط إلى التأريخ الحديث لم تتم في سنة بذاتها، وإنّما هي عملية تحوّل تتمّ تدريجياً وبطريقة غير ملموسة، وأنّ كل ما ورد من آراء لها وجاهتها.

مراحل العصور الوسطى

إنَّ الفترة التي نسميها بالعصور الوسطى فترة طويلة استمرت ما يزيد على ألف عام. ومع طول هذه الفترة لا يمكن القول أنَّ الناس الذين عاشوا في هذه المرحلة ساروا على نظام واحد طوال هذه الفترة، فقد كانت الأحوال تتبدل وتتحوّل وإن كان ذلك بطيء الخطا. ولإيضاح ذلك نقول إنَّ الناس الذين عاشوا أيام جستينيان الأول في القرن السادس الميلادي قد اختلفت حياتهم وأفكارهم عن الذين عاشوا أيام شارلمان في القرن الثامن الميلادي، واختلف الاثنان أيضاً في معيشتهم عن الحياة التي عاشها الفرد أيام الملك الإنكليزي هنري الثالث Henry III (١٢١٦-١٢٧٢م). وعلى ذلك يميل بعض المؤرخين المحدثين إلى تقسيم تاريخ العصور الوسطى إلى مراحل متعددة يمكن وضعها في ثلاث مراحل رئيسة، لكل مرحلة منها ما يميزها عن غيرها مع شيء من التفاوت في الزمان والمكان.

أ- المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي تبدأ ببداية العصور الوسطى وهي ما حددناها بالقرن الخامس الميلادي وتمتد حتى القرن العاشر الميلادي، وفي هذه المرحلة نلاحظ تزايد اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وبداية الغزوات الجرمانية، كما بدأت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع والثامن حتى وصلت غرباً إلى إسبانيا، كما شهدت هذه المرحلة تحركات الفايكنج Viking في شبه جزيرة اسكندناوه في القرن التاسع الميلادي. وبمعنى آخر إنَّ هذه المرحلة شهدت تحركات واسعة النطاق شملت الأراضي الأوروبية. وقد صاحب ذلك إنعدام الأمن لعدم قدرة الحكومات على السيطرة على ما تحت أيديها من أراضي، ومع ذلك كله فقد تمت في هذه المرحلة عملية انصهار الحضارة الرومانية مع الحضارة الجديدة التي جاءت بها العناصر الجديدة التي اتخذت من أراضي أوروبا مستقراً لها. كما شهدت هذه المرحلة أيضاً الهرطقات الدينية حتى ساد المذهب الارثوذكسي في الامبراطورية البيزنطية والمذهب الكاثوليكي في غرب أوروبا.

ب- المرحلة الثانية:

وتلي المرحلة الأولى مرحلة أخرى تبدأ من القرن الحادي عشر وتستمر حتى القرن الثالث عشر. ونلاحظ في هذه المرحلة تمتع الغرب الأوروبي بقدر من الأمن النسبي ووجود النظام الإقطاعي Feudalism وما صاحبه من الفروسية Kingthood وما احتوته من

مثل عُليا. كما ظهرت الجامعات واهتم البعض بالمعرفة خاصة دراسة الفلسفة اليونانية والقانون الروماني. ونشاهد أيضاً التحول الذي ظهر في الفنون المعمارية، ونمو المدن، وقيام أوروبا تحت زعامتين هما الزعامة الدينية بقيادة البابا والديونية بزعامة الامبراطور. ويتضح من هذه المرحلة أنَّ أوروبا قد دخلت مرحلة التكوين، وأنَّ حضارتها في هذه المرحلة بدأت تتخذ شكلاً مميزاً يختلف عن المرحلة السابقة، وظهرت به نهضة لها خصائصها عُرفت باسم نهضة القرن الثاني عشر.

ج- المرحلة الثالثة:

وتتخصر هذه المرحلة في القرن الرابع عشر، وفي هذه المرحلة تغيّرت أفكار العصور الوسطى بفعل تصادم افكار المرحلة السابقة مع الأفكار الجديدة التي ظهرت في أوروبا بفعل التطور، أو من جزاء دخول أفكار جديدة، نتيجة الاحتكاك بين الشرق والغرب وخاصة عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية. هذا الاحتكاك الذي اثنى الغرب الأوروبي بالكثير من العلم والمعرفة، وليس لنا في هذا المجال أن نستشهد بأحد بل يكفي أن نذكر بعض علماء المسلمين في هذه المرحلة. فقد كتب جابر بن حيان (٧٠٢-٧٦٥م) عن الطب والكيمياء، ووضع الخوارزمي (٧٢١-٨١٥م) أقدم جداول في حساب المثلثات، وكتب احمد بن كثير الفرغاني (القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) حوالي عام ٨٦٠م كتاباً عن الفلك ظلت أوروبا تعتمده لزمان طويل، كما عمل ثابت بن قرة (٨٢٦-٩٠١م) بالطب والفلك. كما كان ابو الريحان البيروني (٩٧٣-١٠٤٨م) فيلسوفاً ومؤرخاً وجغرافياً ولغوياً رياضياً وفلكياً وشاعراً وعالمأ في الطبيعة. ونذكر أيضاً الشاعر والطبيب والفيلسوف ابن طفيل (١١٠٥-١١٨٥م) وابن رُشد (١١٢٦-١١٩٨م) الذي كان أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً في العقول، وقد عُرف في العصور الوسطى باسم افروس Averroes، وابن البيطار (١١٩٧-١٢٤٨م) عالم النبات صاحب كتاب الأدوية، وابن النفيس (١٢١٣-١٢٨٨م) الطبيب الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى.

ولعل من جزاء تأثير هؤلاء العلماء وغيرهم من داخل أوروبا ومن خارجها تغيّر تفكير الناس في أوروبا في هذه المرحلة في نواحي عديدة، فإذا نظرنا إلى نظام الحكم على سبيل المثال نجد أنَّ نظرة الشعب إلى النظام الملكي قد تغيّرت، وأصبحت تنظر إليه على أنه رأس الدولة بدلاً من رأس الإقطاع، كما أنَّ بعض شعوب أوروبا قد طالبت الملكية بتحديد سلطاتها

وهو ما أدّى إلى ظهور البرلمانات. ومع هذا التحوّل الفكري في نظام الحكم أصبح الناس يهتمون بأمور دولتهم، وازمحت الفكرة التي كانت سائدة بأنّ أوروبا وحدة واحدة.

وإذا نظرنا إلى الجانب العلمي نلاحظ ظهور اللغات المحلية بدلاً من اللاتينية، وهذا يؤكد ما أوردناه من تفكك الوحدة الأوروبية، ويبدو أنّ هذا التحوّل قد أثر على التعليم لبعض الوقت حتى أننا نجد أنّ الحركة العلمية في الجامعات قد أصابها الجمود، ولعل ذلك مرجعه إلى أنّ هذا التحوّل يحتاج لبعض الوقت حتى تتفهم الناس الحضارة الوافدة إليها واللغة الجديدة التي ظهرت.

أمّا فيما يتعلق بالجانب الديني فقد تزعزع مركز البابا والكنيسة معاً، وهاجمها الناس في مواضع عديدة وهو ما لم يكن مألوفاً في مراحل سابقة. وعلى الجانب الديني نذكر الحروب الصليبية التي ابتعد عنها الناس كثيراً بعد ما ضعف التعصب الديني، وبدأ الناس يهتمون بشؤونهم وتنمية مواردهم في بلادهم.